العدول الجنسي في القران الكريم
دراسة في ظاهرة العدول بين المذكر والمؤنث

أ.م.د. ناظم علي عبادي العلي

جامعة البصرة - كلية الآداب- قسم اللغة العربية

ملخص البحث :

سعى البحث ومن خلال آراء العلماء، ولاسيما علماء اللغة والتفسير، الوقوف عند ظاهرة العدول الجنسي في الخطاب بين التذكير والتأنيث في القرآن الكريم، والافادة من قوانين اللغة التي تجيز مثل هذه الظاهرة اللغوية وصولا الى الدلالة التفسيرية التي تقرب المعنى الى أقصى حدود الفهم للنصوص القرآنية، إذ يشكل العدول الجنسي بوصفه ظاهرة لغوية متميزة، ومعطى لغوياً يسهم في التطور الدلالي للغة الابداعية، معتمداً البحث على عقد مقاربة دلالية بين المفسرين الذين ينطلقون من الدلالة النصية، وأسباب النزول لآيات القرآن الكريم، وبين اللغويين الذين ينظرون الى العدول الجنسي بوصفه ظاهرة لغوية يمكن أن تشكل نموذجاً لغوياً يضاف الى قواعد العربية .

وفي النهاية كانت الغلبة لقواعد اللغة في أنّ تفرض هيمنتها على الدلالة التفسيرية، والتأويلية لنصوص القرآن الكريم التي تجلت فيها ظاهرة العدول الجنسي، وتبين أنّ القواعد الصرفية والنحوية تشكل السبيل الأول للوصول الى أبواب التفسير التي حصل فيها عدول جنسي في لغة الخطاب. كما أنّ للهجات العربية دور في مجيء بعض الالفاظ دالة على المذكر، في حين يظنها بعضهم أنّها من الألفاظ المؤنثة، فاختلاف اللهجات شكل عاملاً فاعلاً، ورؤية إبداعية أضافت بعداً جمالياً، وبلاغيا، وتركت مساحة من حرية الفكر في الاستنباط، والتأويل، ولم تجعل القرآن الكريم مجرد ألفاظ خرجت من حيز المعجم الى حيز القرآن، بل شكلت ثراء لغوياً، وانشأت صوراً بلاغية ابداعية أعجزت العرب أنفسهم أن يأتوا بمثلها.

" Generic Deviation in the Holy Quran : A study of Generic Deviation between Male and Female "

Assist.Prof.Dr. Nadhim Ali Ebadi

Dept. of Arabic language , College of Arts ,University of Basra

Abstract:

With the help of scholars' opinions, mainly those of language and exegesis, this research paper attempts to examine the deviation on the level of gender in discourse between femininity and masculinity in the Holy Quran, and to make use of language rules that allow this language phenomenon so as to arrive at the explicatory significance that helps to the utmost possible the understanding of the Quranic texts; for gender deviation represents a peculiar language phenomenon that is instrumental in the semantic development of the creative language. The paper relies on working out a semantic approach on the way of a contrast between exegetes who proceed from the textual signification of the Quranic suras and the reasons for their descendence and language practitioners who look upon gender deviation as a language phenomenon which may potentially represent a language example that may be added to the rules of Arabic.

The balance has ultimately been tipped to language rules in the sense that they exercise their predominance on interpretation and explicatory signification of the Quranic texts. It is, further, revealed that the grammatical and morphological rules represent the best possible way to arrive at the explication aspects where a deviation has occurred in the language of discourse.

Dialects of Arabic, however, have their due role to play in coining some lexical items which designate the masculine whilst some may have thought that they are of lexical items designating the feminine. Differences in dialects have widened the scope of induction inference and exegesis whereby the Holy Quran has not been left as no more than lexical items coming out from the space of the dictionary is the space of Holy Quran. Rather, they represent density in language, and help carve rhetorical images that Arabs next to them are left helpless to match.

المقدمة

الحمد لله الأول قبل الانشاء، والباقي بعد فناء الأشياء، الذي نزّل القرآن هدى، ورحمة للعالمين، وجعله بينه، وبين عباده الحبل المتين، الامين، والصلاة والسلام على حبيب اله العالمين. ابي القاسم محمد صلى الله عليه واله وسلم.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

يمثل القرآن الكريم الغاية الأولى للمشتغلين في اللغة العربية في أول أطوارها وفي نشأة علم النحو، من اجل الوصول الى بعض أسراره، وهو الذي تحدى العرب قاطبة ان يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، لذا أهتم العرب بوضع الأسس التي تحفظ لغة القرآن الكريم، وهي العربية من أن تمتد له يد عن قصد، أو غير قصد، وتحرفه عن مقاصده التي جاء بها بعد أن كثر المسلمون، ولاسيما من الأقوام غير العربية لعدم معرفتهم بقواعد اللغة العربية التي يتحدث بها أهلها سليقة، فجاء الوقت الذي لابد أن يكون لهذه اللغة من القواعد، والأسس ما يصون الألسن من الوقوع في الزلل والخطأ .

ولمّا كان القرآن الكريم هو دستور المسلمين، ودليلهم الى الفكر الاسلامي الصحيح كثرت الدراسات التي تحاول الإلمام بكل ما من شأنه تقربهم الى الله سبحانه، وفي مقدمتها دراسة قواعد اللغة العربية، ولكن الذي حصل ان بعض علماء العربية لم يجعل من القرآن الكريم هو السابق على القواعد، مع العلم ان وضع القواعد النحوية، والصرفية مرحلة لاحقة لنزول للقرآن الكريم، من هنا يحاول الباحث الوصول الى رأي من خلال آراء العلماء، ولاسيما علماء اللغة، والتفسير من أنّ ما جاء من النصوص، والآيات التي عدها بعض اللغويين مخالفة، أو انحرافا لقواعد العربية أن يكون مجيء هذه الآيات على وفق هذه السياقات له ما يسوّغه، وأنّ له من وجوه البناء اللغوي الصرفي، والدلالي ما يجعله موضع دراسة وتأمل، ومن هذه الموضوعات التي يقف عندها البحث ظاهرة العدول في المذكر والمؤنث في القران الكريم . اذ يقصد بالعدول هو الخروج عن أصل القاعدة، أو أصل الوضع. إذ تتيح إمكانية اللغة العربية على الانتقال من سياق لغوي الى آخر تبعا لمغزى المتكلم، من هنا يحصل العدول على وفق المعاني المقصودة وإرادة المتكلم. إذ ركز البحث على ظاهرة العدول بين صيغتي المذكر، والمؤنث التي وردت في نصوص القرآن الكريم من خلال الافادة من القوانين اللغوية التي تجيز هذا العدول وصولاً الى الدلالة التفسيرية التي تقرب المعنى الى أقصى حدود الفهم للنص القرآني. اذ يشكل العدول منحى ابداعياً بوصفة ظاهرة لغوية متميزة، ومعطى لغوياً يسهم في التطور الدلالي للغة الابداعية.

ولما كان القرآن الكريم ولم يزل أعلى قيم اللغة الابداعية من حيث النظم، والبلاغة، والبيان والاعجاز، ركز البحث على جانب من جوانب العدول الكثيرة في العربية، وهو ظاهرة العدول بين التذكير والتأنيث فيه. اذ سعى البحث الى عقد مقاربة دلالية بين المفسرين الذين ينطلقون من الدلالة النصية، أو

العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

التفسيرية لنصوص القرآن الكريم، وبين اللغويين الذين ينظرون الى العدول بوصفه ظاهرة لغوية يمكن أن تشكل مثالاً لغوياً خاصاً يضاف الى قواعد العربية.

إذ يلاحظ هذه المزاوجة في استعمال مفردات دالة على المذكر في سياق المؤنث، أو العكس من ذلك، وهذا الأسلوب يشكل بحد ذاته إعجازاً لغوياً ودلالياً للقرآن الكريم. إذ تعد معرفة صور الخطاب للمذكر والمؤنث من الأمور الجوهرية في معرفة أصول اللغة يقول ابن الانباري المتوفى(٣٢٨هـ): ((اعلم أنّ من تمام معرفة النحو والاعراب معرفة المذكر والمؤنث: من ذكّر مؤنثا، أو أنث مذكراً كان العيب لازما له كلزومه من نصب مرفوعاً، أو خفض منصوباً أو نصب مخفوضاً))[١]. إنّ العدول في صور الخطاب القرآني لا يمثل انحرافاً في الاستعمال اللغوي بقدر ما يمثل إبداعاً في الاستعمال ما يستوجب وقفة لهذا الأمر بالدراسة، والتحليل للوقوف على حقيقة هذا الابداع القرآني.

البحث

اعتمد البحث على المنهج الوصفي من خلال الاعتماد على النصوص القرآنية التي تدعم هذه الظاهرة اللغوية بالدراسة، والتحليل مستفيدا من آراء العلماء اللغويين، والمفسرين، ومقارنتها مع بعضها للوصول الى رأي لغوي ناضج يفيد القارئ، والمختص في مثل هذه الدراسات اللغوية.

العدول في اللغة: كما جاء في لسان العرب لأبن منظور(٦٣٠هـ ـ٧١١هـ) مأخوذ من الجذر الثلاثي (ع د ل) قائلا:((عدل عن الشيء يعدل عدلاً وعدولاً: حاد وعن الطريق: جار، وعدل اليه عدولاً: رجع. وماله معدل ولا معدول، أي مصرف. وعدل الطريق: مال. قال أبي خراش:

على أنّني إذا ذكرت فراقهم تضيق عليّ الأرض ذات المعادل[٢]

أراد ذات السعة يعدل فيها يميناً وشمالاً من سعتها. والعدل: أن تعدل الشيء عن وجهه، تقول: عدلت فلاناً عن طريقه، وعدلت الدابة الى موضع كذا))[٣] ، إذ نلاحظ المفارقة اللغوية، والدلالية لهذا المصطلح، ولاسيما في مفهوم السعة في الطريق الذي يقترب كثيرا من تعريف العدول في الاصطلاح، وقرّب العكبري(٥٣٨هـ ـ ٦١٦ه) دلالة العدول في اللغة من الاصطلاح، ولامس اطرافها بتعريف العدل قائلا:((والعدل هو أن يقام بناء مقام بناء آخر من لفظه، فالمعدول عنه أصل للمعدول))[٤].

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية

أمّا في الاصطلاح: فالعدول مأخوذ في الأصل كما مرّ ذكره من العدل، فالعدل كما يعرفه الجرجاني (٧٤٠ ــ ٨١٦هـ) ((عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط، والتفريط، وفي اصطلاح النحويين: خروج الاسم عن صيغته الأصلية الى صيغة أخرى.))[٥] ، في حين يرى ابن الاثير(٥٨٠ـــ ٦٣٧ هـ) أنّ العدول هو أسلوب من أساليب البلاغة العربية له الشيء الكثير، وليس لمجرد التوسع في أساليب الكلام، وإنما له من المقاصد ما يخفى على من لا يتدبر الكلام على وجوهه المقصودة قائلا:((واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أنّ العدول عن صيغة من الألفاظ الى أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصيته، اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة، والبلاغة الذي اطلع على أسرارها وفتش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنّه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقها فهماً وأغمضها طريقاً))[٦] ، والى هذا المعنى أيضا يجد عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) في ظاهرة العدول أنّه نوع من أنواع المجاز ((واذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنّه مجاز))[٧]. وسمى ابن جني (٣٢٢ ـــ ٣٩٢ هـــ) هذا العدول في الاستعمال بالحمل على المعنى في كتابه الخصائص قائلا: ((أعلم أنّ هذا الشرج غور في العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القرآن الكريم، وفصيح الكلام منثورا، ومنظوما، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول، أصلا كان ذلك اللفظ، أو فرعاً... فمن تذكير المؤنث قوله:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل ابقالها[٨]

وذهب بالأرض الى الموضع))[٩].

إذ تعد ظاهرة العدول من المذكر الى المؤنث، أو من المؤنث الى المذكر أسلوباً لغوياً شائعا في اللغة العربية ، ولاسيما في الشعر. ما يعني أنّ ما جاء في القرآن الكريم لا يمثل بدعة لغوية، ولكن استعملها الاسلوب القرآني بشكل بلاغي يحمل الكثير من جمال الاسلوب والصنعة اللغوية المحكمة. وما جاء في الشعر العربي لهذه الظاهرة اللغوية الشيء الكثير، إذ ذكر الحريري(٤٤٦ـــ ٥١٦ هـــ) من هذه الامثلة قائلا:((ويقولون: امتلأت بطنه، فيؤنثون البطن، وهو مذكر في كلام العرب بدليل قول الشاعر:

فانك ان اعطيت بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم اجمعا[١٠]

فأما قول الشاعر:

فانّ كلابا هذه **عشر أبطن** **وأنت بريء من قبائلها العشر**[١١]

فإنّه عنى بالبطن: القبيلة، فأنّثه على معنى تأنيثها، كما ورد في القرآن الكريم(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)[الانعام١٦٠] فأنث المثل وهو مذكر لمّا كان بمعنى الحسنة))[١٢]. ويعلل الحريري هذا الأسلوب العدولي على أنّه حمل على المعنى كما أشار الجرجاني على أنّه حمل لفظ البطن في قول الشاعر على معنى القبيلة فأنثه على معنى تأنيثها.

والى هذا الاتجاه في الدلالة على الحمل على المعنى يذهب ابن فارس(٣٩٥هـ) ففي قوله تعالى:((السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ))[المزمل:١٨] حمل على السقف[١٣]. أمّا السبب في وجود مثل هذه الظاهرة في العربية فقد عـــدّ ابن فارس ظاهرة العدول هذه بين المذكر، و المؤنث إنّما يرجع الى اختلاف لغات العرب أي (لهجاتها) فإنّ من العرب من يقول:(هذه البقر) ومنهم من يقول:(هذا البقر) و(هذه النخيل) و (هذا النخيل)[١٤] . فيما ذهب ابن الانباري(٥١٣ ه ـــ٥٧٧ه)الى أنّ (البقر) يقع على المذكر والمؤنث[١٥].

ولابد من الإشارة الى أنّه ليس يجري أمر المذكر والمؤنث على قياس مطرد، ولا لهما باب يحصرهما[١٦] . وما ذكر من علامات في المؤنث توجد في المذكر بعينها، ولذلك فأنّ أمر هذه العلامات ليس بالشيء المطرد في تمايزهما عن بعضهما بعض إذ أنّ هناك الكثير من المفردات تشترك في الاسم للدلالة على المذكر والمؤنث في الوقت نفسه، ولكن السياق الذي ترد فيه هذه المفردات هي التي تحيل الى المقصود منها للدلالة على التذكير، او التأنيث. مما يعني أنّ هذا التفريق بين المذكر والمؤنث، وأدواته اللغوية هو تصور ذهني محض وضع من أجل الاستقراء اللغوي لا لغاية اخرى.

في حين عد بعض اللغويين، ولاسيما من المحدثين أنّ العدول يعدّ نوعاً من أنواع الانحراف عن قوانين اللغة وقواعدها، وفاتهم أنّ اللغة وجدت، ولاسيما اللغة العربية المتمثلة بالكلام المنظوم والقرآن الكريم قبل أن توضع القواعد، وتأطرت أسسه على الشاكلة التي توجد في متون كتب اللغة والنحو التي وصلت الينا، ولذلك فان تعريف الدكتور تمام حسان للأسلوب العدولي((خروج عن أصل، أو مخالفة لقاعدة))[١٧] فيه شيء من الحيف على اللغة وأساليبها، وقد تناسى المحدثون أنّ اللغويين القدماء كانوا قريبي عهد بعصر تدوين وتأصيل لقواعد اللغة العربية، وكانوا لا يجدون شيئا من منثور القول، أو منظوم الكلام، أو نصوص القرآن

الكريم، الا وقد وجدوا له وجهاً، أو باباً من أبواب العربية، ولم يكونوا أيضا قد رأوا بأنّ العدول هو خروج عن قواعد العربية، إنّما العدول هو نوع من أنواع السعة في الكلام، ونوع من أنواع البلاغة في التعبير، وليس خروجاً عن قواعد العربية، و الدكتور تمام حسان نفسه الذي وجد في العدول أنّه خروج عن أصل القواعد يرى أنّ القواعد تكون أضيق من الكلام، ويمكن أيضا من خلال التأويل قد يحتمل وجهاً واحداً، وقد يحمل وجوهاً متعددة، وقلما يشتمل المأثور على ما يستعصي على التأويل[١٨]. ويمكن أن تصل مرحلة العدول عن أصل القاعدة الى مرحلة الاطراد قائلا:((أمّا إذا اطرد العدول عن الأصل فأمّا أن يكون العدول عن قاعدة، أو عن أصل وضع، وفي كلتا الحالتين يصبح الفرع المطرد صالحاً لأن يكون مقيساً عليه بسبب اطراده، فيحمل عليه غيره بعلة كما حصل على الأصل)) [١٩]. فيكون العدول هو القاعدة الجديدة التي يمكن أن يقاس عليه. أمّا المحدثون من اللغويين، والبلاغيين فإنّما يعدون العدول نوعاً من أنواع الانحراف في الاستعمال اللغوي. أذ لا يخرج تعريف العدول في الاصطلاح عن المعنى اللغوي، فالعدول في الاصطلاح يدور في معنى التحول والاتساع في أصل القاعدة النحوية، واللغوية بنقل الكلام من اسلوب الى آخر، أو من مستوى لغوي الى مستوى لغوي آخر. والذي يدل على هذا المعنى ما ذكره الزمخشري(٤٦٧هـ ـــ ٥٣٨هـ) إذ جعل العدول قريناً بالدلالة مع مصطلح الالتفات، قائلا:((فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة الى الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان))[٢٠] أي صرف وجه الخطاب من جهة الى أخرى. وهناك مصطلحات أخرى ذكرها القدماء معادلة في المعنى لمصطلح العدول [٢١].

ووقف الدكتور أحمد مختار عمر موقفاً مناقضاً من ظاهرة العدول في التذكير، والتأنيث التي ذهب اليها اللغويون العرب قائلا:((وقد أراد اللغويون العرب التخلص من هذه المشكلة عن طريق ما سموه (الحمل) بمعنى أن يكتسب اللفظ جنس كلمة ترتبط به عن طريق المعنى))[٢٢] . ورأى أن يكون الاطراد هو المقياس الذي ينبغي أن يعتمد في ظاهرة تذكير المؤنث المجازي الخالي من العلامة في الاستعمال قائلا:((فاذا كان تأويل المؤنث المجازي بمذكر مسموحا به لنقض الاستعمال، فلماذا لا نطرده في كل مؤنث بعد نية تأويله . ولعل اللغويين الذين صرحوا بجواز تذكير المؤنث المجازي الخالي من العلامة كانوا أكثر شجاعة ، وأقرب الى الواقعية من الذين اوّلوا))[٢٣]. بل ذهب الدكتور أحمد مختار عمر الى أبعد من ذلك، مقترحاً على مجمع اللغة العربية في القاهرة بعدم تخطيئه مستعملي اللغة العربية من خلال تبني القرار الآتي(كل ما كان مجازي التأنيث بدون علامة يجوز تذكيره) وعلى هذا ينصح كل من يقابله لفظ بدون علامة تأنيث، وليس لمؤنث حقيقي أن يعامله معاملة مذكر [٢٤].

يقسم الكلام في العربية الى اسم وفعل وحرف، والاسم أمّا جامد، او مشتق[٢٥]. والاسماء منها ما هو مذكر، أو مؤنث، والمؤنث ينقسم الى حقيقي، وغير حقيقي و((عوملت سائر الموجودات فهي أمّا مؤنثة وإن لم يكن لها مذكر من جنسها، أو مذكرة وان لم يكن لها مؤنث من جنسها. وهذا ما عرف بالتذكير المجازي، كالقمر، والحجر، أو مؤنثة تأنيثاً مجازياً كالشمس والعين. وهذا ما سلكته اللغات السامية بعامة مع الموجودات الكونية ، فهي أمّا مذكرة، أو مؤنثة، وقد تعامل اللفظة الواحدة معاملة المذكر حيناً ومعاملة المؤنث حيناً اخر. كالطريق والسبيل... ولكن هذا لا يخرجها عن قاعدة المذكر والمؤنث.))[٢٦]. إذ ترد اللفظة الواحدة في الاستعمال ونجد من يعاملها معاملة المذكر، وآخرون يجدونها على أنّها من ضمن الألفاظ المؤنثة فلفظة(السبيل) يذكر ويؤنث[٢٧]. وهذا ما جاء به القرآن الكريم بكلا الاستعمالين، قال تعالى:((**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين**))[يوسف:١٠٨] في هذا الاستعمال أنث، وجاء بصيغة المذكر. قال تعالى:((**وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا**))[الاعراف:١٤٦]

ذهب اللغويون العرب الى أن يكون كل شيء في أقسام الكلام يخضع الى مفهوم الأصل والفرع، ومن هذه الأقسام المذكر أصل، والمؤنث فرع ،يقول سيبويه(١٨٠هـــ): ((واعلم أنّ المذكر أخف عليهم من المؤنث لأنّ المذكر اوّل، وهو أشدّ تمكناً، ،وإنّما يخرج التأنيث من التذكير. ألا ترى أنّ الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو، أو أنثى، والشي ذكر))[٢٨]. والى هذا الرأي من أنّ المذكر هو الأصل أشار المبرد(٢٨٥هـــ) بقوله:((إذا اجتمع مذكر، ومؤنث جعل الكلام على التذكير لأنّه الأصل))[٢٩]. كما في قوله تعالى:((وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَر)) [القيامة:٩] والتذكير أحسن حالا من التأنيث في سياق الكلام، ويعد ذلك مجيء الكلام على صورته التي عرفتها العربية والسبب أنّ((تذكير المؤنث أحسن من تأنيث المذكر، لأن التذكير أصل التأنث فإذا ذكرت المؤنث ألحقته بأصله، وإذا أنثت المذكر أخرجته عن أصله))[٣٠].

أمّا علة كون المذكر أصل والمؤنث فرع عليه فلأن التذكير لا علامة له، والتأنيث له علامة، وذلك يدل على أنه فرع على التذكير [٣١]. والى هذا الرأي أيضا ذهب أبو حاتم السجستاني(٢٥٥هـــ) من أن صرف أكثر المذكر، وترك صرف المؤنث جاء بناء على وجود علامة تأنيث من عدمها قائلا:((اعلم أنّ المذكر أخف من المؤنث، لأن التذكير قبل التأنيث، فلذلك صرف أكثر المذكر العربي، وترك صرف المؤنث العربي، ولذلك استمر المذكر بغير علامة للتذكير. بل ليست للتذكير علامة لأنّه الأول وألحقوا في أكثر

المؤنث من الاسماء، والصفات أحدى علامات التأنيث الثلاث: الهاء التي إذا أتصلت بما بعدها صارت تاء والألف المقصورة والألف الممدودة اللتين للتأنيث))[٣٢].

ولابد من الإشارة الى أنّ العلامات التي تلحق بالاسم المذكر لنقله الى التأنيث إنّما جيء بها لغرض التخصيص، والفهم، والتفاهم، والاختصار في السياق، ولمّا كان القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب، فإنّ منطق اللغة يتوجب أن يكون ما ورد في القرآن الكريم من الأصول، والفروع التي أقرّها علماء العربية، هو السبيل الى فهم أحكامه، والتعبد بتلاوته، وتدبر معانيه، ولذا تنوعت أساليب الخطاب في القرآن الكريم لتشمل كل أساليب العربية كما عرفها وفهمها المتكلمون بهذه اللغة.

في حين أنكر أحد الباحثين هذا التصور للتقسيم الاستقرائي للغة على أساس الأصل والفرع قائلا: ((فالتذكير والتأنيث مفهوم ثقافي وتصور ذهني، وليس قيمة طبيعية جوهرية فلماذا يجري تفريع الجسد المؤنث في اللغة وعزله عن الفعل والتفاعل اللغوي))[٣٣]. أمّا الدكتور عبدالفتاح الحموز فيرى أن المجتمع وعاداته لها التأثير الكبير على اللغة، فالعربية ((تميل الى تغليب المذكر على المؤنث في الغالب لخضوعها لسلطان عادات مجتمع البيئات اللغوية وتقاليده واعرافه ومعتقداته وتأثيرها، وهو تغليب يكمن في مسائل مختلفة ... وتسمية الاناث بما وضع للذكور من أبنية وتغليب صفات الذكور على تلك التي للإناث في كل ما يستوي فيه المذكر والمؤنث، وجواز تذكير الفعل وتأنيثه مع فاعله، أو نائبه المؤنث حقيقيا، أو مجازيا، أو وجوبه))[٣٤]، فكيف لم يكن في تغليب المذكر على المؤنث تعزيزاً لفكرة أنّ المرأة أقل مكانة ودرجة من الرجل كما يزعم من ذهب الى تعليل ظاهرة العدول من المؤنث الى المذكر.

وهذا التعليل في العدول لا ينطبق على القرآن الكريم، إذ قد يكون هذا التعليل في مأثور القول، أو الشعر. كما عرفت العرب المرأة قبل نزول القرآن الكريم، ولكن بعد الاسلام تغيرت النظرة للمرأة، لانّ القرآن الكريم، قد أعطى للمرأة المكانة التي تستحقها، وخير دليل على ذلك أنّه منع وأد البنات، وأشركها في الميراث، وحرية اختيار الزوج، وغير ذلك مما لم تكن تحصل عليه قبل الاسلام.

ولابد من الاشارة الى أنّ المعيار الأساس في الاستعمال هو القاعدة التي وضعها اللغويون والنحاة، ولكن قد أغفل جانب مهم، وغاب عن أذهانهم أنّ هذه الصيغ الاستعمالية التي حاول اللغويون، والنحاة الوقوف ضدها إن ـــ صح القول ـــ هي من الصيغ التي تم تداولها وسمعت عن العرب ومن ثمّ كان لزاماً على هؤلاء

العلماء أن يكونوا أكثر تسامحاً مع هذا المستوى من التداول لهذه اللغة المتداولة، ويكون انتاج هذه القواعد يشكل دعامة أساسية في بناء منظومة القواعد العربية التي لم تكن مقبولة في مرحلة من تاريخ وضع القواعد، وهي مرحلة تأريخية في عمر التدوين، ومن خطأٍ هذه التراكيب يبدو أنّه قد تناسى أنّ أصحاب السليقة اللغوية هم من نطق بهذه التراكيب. وعلينا أن نقر أنّ مجيء الألفاظ مكررة وعلى نمطين مختلفين يوحي انه((لا يكرر المرء مطلقا جملة واحدة بعينها مرتين، ولا يستعمل كلمة بعينها مرتين بنفس القيمة، لأنّه لا يوجد مطلقا واقعتان لغويتان تتماثلان تماثلا تاما، ويرجع السبب في ذلك الى ظروف دائبة على التعديل من احوال انفعاليتنا))[٣٥]. فما بالنا بالذي أوجد الخلائق، وأنشأ الكون وعلم الانسان ما لم يعلم، ألا ينبغي أن نتفكر، ونعتبر لهذه السياقات المختلفة في كلمات وجمل وردت في القرآن الكريم، لم تتكرر بعينها في الاستعمال القرآني.

المذكر والمؤنث الحقيقي والمجازي: مثلما تم التفريق بين المذكر والمؤنث بناء على السمات البيولوجية، قسم علماء اللغة المذكر والمؤنث على اعتبار آخر، وهو ما يسمى بالمؤنث والمذكر المجازي، وهو ما ليس له فرج ويتمثل بالجمادات والمعاني، وهو ما استحق التذكير والتأنيث بالوضع، أو الاصطلاح لعدم وجود أعضاء تذكير، أو تأنيث به، أو لا صلة له بالجنس الحقيقي على وجه الاطلاق مثل الحجر والجبل والمعاني كالعدل والكرم[٣٦]..يقول ابن يعيش(٥٥٣هـ ـ ٦٤٣هـ):((إذا أسندت الفعل الى شيء من ذلك كنت مخيراً في إلحاق العلامة وتركها وأن لاصق نحو انقطع النعل، وانقطعت النعل، وانكسرت القدر، وانكسر القدر، وعمرت الدار، وعمر الدار، لأن التأنيث لما لم يكن حقيقياً ضعف ولم يعين بالدلالة عليه مع ان المذكر هو الأصل، فجاز الرجوع اليه، واثبات العلامة فيه أحسن من سقوطها مع الحقيقي قال الله تعالى(**فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّه**)،[البقرة:٢٧٥] (**وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**)[الحشر:٩] (**وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ**)[هود:٦٧]) واثبات التاء أحسن قال الله تعالى(**قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ**)[يونس:٥٧])))[٣٧] .إذ بنى ابن يعيش رأيه على مبدأ الأصالة والفرعية في إثبات التاء وحذفها من الفعل اذا جاء معه المؤنث المجازي، ما يعني أن فكرة، أو نظرية الأصالة، والفرعية هي التي تتحكم في المؤنث بغض النظر عن كون المؤنث حقيقياً، أو مجازياً، وربما كان لسلطان النص الديني وقدسيته، هي المرجعية في اثبات أحقية مجيء الفعل مع التاء من عدمه مع المؤنث المجازي، ومن ثمّ انعكست على مجمل اللغة العربية وسياقاتها بمختلف أنماطها وتشكيلاتها، وبقيت نظرية الأصالة هي وحدها هي القابلة لأن تكون مرجعية قواعدية في إثبات التاء في الفعل من عدمه في مستوى التشكيل الصرفي. إلّا أنّ نظرية الأصالة تتحقق في المذكر، والمؤنث

الحقيقي، ولا تصدق هذه النظرية على المؤنث، والمذكر المجازي ذلك((أنّ التقابل بين الذكورة والأنوثة كما هو في الأحياء غير متحقق في الجمادات والمعاني، ولهذا نجد العديد من الألفاظ المؤنثة التي لا يوجد لها أصل ذكوري بالمعنى المقصود (من مثل: باخرة، قاطرة، عمارة، طاولة، كعبة، سفينة...الخ) لذا فإنّ التمسك الحرفي بفكرة السبق المادي يضع أمام الباحث اطاراً تصويرياً معقداً للتفسير والتحليل اللغوي يعمل على إعاقة التجانس بين الحالات، والنماذج اللغوية المختلفة))[٣٨].

في حين يرى بعض الباحثين أنّ المؤنث المجازي لا يقوم إلّا على أساس تصور مرتبط بالتصورات الذهنية، والنفسية للمتكلمين، ومن ثم فهو مبني على العرف، والاصطلاح ما يعني صعوبة تقنينه، والسيطرة عليه بوسائل لغوية[٣٩]. ويرى الدكتور محمود السعران خلاف ذلك قائلا:((إنّ العلامات الشكلية التي تحدد تذكير الاسم، أو تأنيثه في العربية تتحقق أساسا في الاسناد، والصفة، فالذي يبين أنّ السماء مذكرة، أو مؤنثة، هو وصفها، كأن تقول السماء الصافية لا الصافي، أو الاخبار عنها كان تقول أمطرت السماء، لا أمطر)) [٤٠]. من هنا نستنتج أنّ هناك اختلافاً كبيراً في الآراء سواء عند القدماء أم المحدثين من علماء العربية في الوصول الى حقيقة راسخة، أو حتمية في تحديد ماهية الجنس، ولا سيما المجازي، وتبقى كل الآراء خاضعة للتحليل، والتفسير، من أجل الوصول الى رأي أقرب الى واقع اللغة. وعلى الرغم من كثرة الحديث عن ظاهرة التذكير والتأنيث في العربية، ولما يشكله الجنس من أثر في الحياة فقد انسحب الأمر على تلقي نصوص القرآن الكريم، وكثرة التأويلات لنصوصه في هذا الموضوع. وسوف يركز البحث عن دلالات هذه الظاهرة بالدراسة، والتحليل، ومدى موافقتها مع آراء علماء اللغة، وعلماء التفسير.

ومن الأمثلة على هذا العدول في القرآن الكريم، قال تعالى:((**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**)) [الانفال:٣٥] ولما كانت الصلاة بمعنى الدعاء فان مجيء الفعل بصيغة المذكر انما جاء حملا على المعنى وكون الصلاة مؤنثة تأنيثا مجازيا، وهذا يتطابق مع قواعد العربية، والله اعلم.

قال تعالى:((**فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِين**))[النمل:٥١] ففي هذين الآيتين ذكر ابن فارس(٣٩٥هـ) أنّه إذا كان المؤنث مجازاً يجوز فيه عند تقديم فعل المؤنث تذكير الفعل، وتأنيثه في حين يمتنع ذلك في المؤنث الحقيقي، فلا يقال إلّا والفعل متصل بتاء التأنيث، فنقول (قامت المرأة)

و(نفرت الشاة)[٤١]. وهكذا الحال مع كل النصوص التي وردت في القرآن الكريم يمكن الحكم عليها على هذا النحو. إذ ذكر الدكتور رمضان عبد التواب مؤكدا هذا الرأي:((أنّ هناك اشياء لا صلة لها بالجنس الحقيقي، على وجه الاطلاق، مثل الجمادات كالحجر والجبل، والمعاني كالعدل والكرم، وغير ذلك، فمثل هذه الامور لا يلحظ فيها تذكير، أو تأنيث، بالمدلول الحقيقي الطبيعي لهاتين الكلمتين))[٤٢].

ومن الأمثلة القرآنية التي جاءت في هذا السياق التركيبي من أنّ المؤنث المجازي يجوز فيه التذكير في الدلالة النصية كما يجوز التأنيث قال تعالى:((**فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ**))[البقرة:٢٧٥] .ففي هذه الآية الكريمة جاء لفظ الفعل بصيغة المذكر على الرغم من مجيء الفاعل مؤنثاً كون الفاعل مؤنثاً مجازياً، أو حمل على المعنى، يقول الزمخشري:((وذكر فعل الموعظة، لأنّ تأنيثها غير حقيقي، ولأنّها في معنى الوعظ))[٤٣]. والى هذا التوجيه في بيان مجيء هذه الآية على هذه الصياغة اللغوية ذهب أبو حيان الاندلسي(٦٥٤– ٧٤٥ه) موافقا الزمخشري، من أنّ الموجب في تذكير الفعل ان المؤنث هو مؤنث مجازي[٤٤] . وهناك رأي للفراء لا يستند الى فكرة المذكر، أو المؤنث المجازي في تذكير الفعل، أو تأنيثه، وهو أنّ المفردة التي وردت في هذه الآيات على هيئة المصدر، والمصدر لا يحمل صفة التذكير، أو التأنيث إنّما هو لفظة تستعمل في سياقها دالة على التذكير وفي سياق آخر دالة على التأنيث، والذي يوجه دلالة هذه المفردة للتأنيث او التذكير هو السياق ودلالة المعنى ((فاذا كان الفعل في مذهب المصدر مؤنثاً مثل : العاقبة، والموعظة، والعافية فإنّك إذا قدمت فعله قبله أنثته وذكرته))[٤٥] . ومثلما جاء المصدر مع فعله مذكراً في الآية السابقة، ذكر التأنيث للفعل مع اللفظ نفسه في الآية التالية في قوله تعالى: ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**)) [يونس:٥٧] وهذا ما أكده علماء العربية في اصولهم من جواز تذكير الفعل، أو تأنيثه مع المؤنث المجازي[٤٦].

قال تعالى:((**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**)) [الحشر:٩]. قال تعالى((**وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**))[هود:٦٧]. وكما هو الحال دائما لدى علماء العربية فانهم لا يعطون رأيا قطعيا في المسائل التي يجدون فيها لبسا، أو قصورا في الرأي، فهذا هو ابن عادل الدمشقي(٨٨٠هـــ) يوجه الآية الكريمة بحذف تاء التأنيث من الفعل قائلا:((حذفت تاء التأنيث: إمّا لكون المؤنث مجازياً، أو للفصل بالمفعول، أو لأنّ الصيحة بمعنى الصياح، والصيحة: فعلة يدل على المرة من

الصياح، وهو الصوت الشديد صاح يصيح صياحا))[٤٧]. وهنا أضاف رأياً من أنّ المصادر يجوز تذكيرها وتأنيثها، أو أنّه يستوي التذكير والتأنيث في الفعل إذا فصل بين الفعل و فاعله بشيء. وفي السورة نفسها جاء الفعل بصيغة المؤنث بقوله تعالى:((**وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**)) [هود:٩٤] إذ لا اختلاف بين الآيتين فجاءت الآيتان بالألفاظ نفسها إلاّ في الصياغة بالفعل بين التذكير والتأنيث فما هو توجيه علماء التفسير لهذه الآية من الناحية الدلالية حتى تصح مع الجانب اللغوي؟ ذكر الخطيب الاسكافي(٤٢١هـ) أنّ مجيء هاتين الآيتين بهذه الصياغة ربما حمل على الصيحة، بمعنى الصياح، إلا أنّه يرى أنّ هناك معنى دلالياً، وتفسيرياً يختلف بين الموضعين في السورة ذاتها، وهو أنّ في مجيء الفعل(أخذت) في الحديث عن قصة شعيب (عليه السلام) فائدة ليست لها في قصة صالح عليه السلام، فان الله أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب عليه السلام، بثلاثة ألفاظ وهي(الرجفة، الصيحة، والظلة)وهي ألفاظ مؤنثة وجب مجيء الفعل مع هذه الآية موافقا لدلالة النص والمعنى قال الخطيب الاسكافي:((فلما اجتمعت ثلاثة أشياء مؤنثة في العبارة عن العذاب الذي اهلكوا به غلب التأنيث في هذا المكان على المكان الذي لم تتوال فيه هذه المؤنثات، فلذلك جاء في قصة شعيب **(وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ)**))[٤٨].

قال تعالى: ((**فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ**)) [الانعام:١٥٧]

قال تعالى: ((**قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ**)) [الاعراف:٧٣] في هاتين الآتين جاءت المصادر مؤنثة ما يعني أنّها تقع في ضمن دائرة الألفاظ المؤنثة تأنيثاً مجازياً، ومن ثمّ فإنّه يجوز تذكير الفعل وتأنيثه، ما خرج منها على لفظ المؤنث المجازي. يقول المبرد:((فأما ضرب جاريتك زيداً، وجاء أمتك، وقام هند ــ فغير جائز، لأنّ تأنيث هذا تأنيث حقيقي. ولو كان من غير الحيوان لصلح وكان جيداً، نحو هدم دارك، وعمر بلدتك، لأنه تأنيث لفظ، لا حقيقة تحته))[٤٩]. ويذكر المبرد في موضع آخر في السياق ذاته من جواز تذكير الفعل مع المؤنث المجازي قائلا:((ولو كان مؤنث الاسم، لا معنى لتأنيث، ولا تذكير تحته . كالدار والنار وما كان غير ذلك مما ليست له حقيقة التأنيث لجاز أن تذكر الفعل ان شئت فتقول : أطفئ نارك، وجيء نساؤك، لان هذا انما هو تأنيث الجمع))[٥٠].

قال تعالى ((**وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ**)) [البقرة:١٥٠] في هذه الآية لما فصل بين الفعل (يكون) وبين اسمه بفاصل جاز التذكير يقول ابن الانباري:((فإذا فصلت بين فعل المؤنث وبينه بشيء أعتدل التذكير والتأنيث، كقولك: ضرب زيداً هند، وضربت زيداً هند. فمن أنث

لزم القياس ومن ذكّر قال: لما حجز بين الفعل والمؤنث حاجز، رجع الفعل الى أصله، والقياس التأنيث والتذكير جائز))[٥١].

والى هذا ذهب أبو حيان الأندلسي أيضا بقوله:((والقراءة بالياء، لأن الحجة تأنيثها غير حقيقي، وقد حسّن ذلك الفصل بين الفعل ومرفوعه بمجرورين، فسهل التذكير جيدا))[٥٢]. وهذا القياس في تذكير الفعل مع المؤنث المجازي هو السياق الوارد في القرآن الكريم عند حالة الفصل بين الفعل، ومرفوعه، وهو ما يتماشى مع قواعد اللغة العربية، وهذا يعني أن القرآن الكريم لا يخرج عما جاءت به العرب في كلامها، ونظمها، ونثرها، وهذا ما تؤكده الآية القرآنية بقوله تعالى:((**وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا**))[الانعام:٦] إذ جاءت لفظة (مدرار) وهي من صيغ المبالغة التي يوصف بها المذكر والمؤنث على حد سواء فيقولون: امرأة مذكار، إذا كانت كثيرة الولادة للذكور، وكذلك مئناث لكثرة الولادة للإناث[٥٣]. ولما كانت لفظة السماء دالة على التأنيث المجازي جاز تذكير لفظة(مدرار)، و لا خلاف في ذلك السياق من الناحية اللغوية او الدلالية .

قال تعالى((**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**)) [البقرة:٢١٢] وفي هذه الآية لما جاء لفظ(الحياة) دالا على التأنيث المجازي، وفصل بينه وبين مرفوعه بفاصل جاز تذكير فعله، قال الزجاج(٣١١هـــ) : ((رفع على ما لم يسم فاعله (زيّن) جاز فيه لفظ التذكير، ولو كانت زيّنت لكان صواباً، وزيّن صواب حسن، لأنّ تأنيث الحياة ليس بحقيقي، لأن معنى الحياة ومعنى العيش واحد، وقد فصل أيضا بين الفعل وبين الاسم المؤنث))[٥٤].

ومثله أيضا قوله تعالى:((**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**))[البقرة:٤٨] اذ جاء الفعل مذكراً ومرفوعه مؤنثاً، وهذا يؤيد القاعدة النحوية في جواز تذكير الفعل إذا كان معموله مؤنثا تأنيثاً مجازياً، وقد فصل بين الفعل وبينه يقول الزجاج عن هذه الآية((وتقول: لا يقبل منها شفاعة، ولا تقبل، لأن معنى تأنيث ما لا ينتج غير حقيقة، فلك في لفظه التذكير والتأنيث، تقول: قبل منك الشفاعة وقد قبلت منك الشفاعة))[٥٥].

وذهب علماء العربية الى أنّ الجنوح من خطاب المذكر بصيغة المؤنث، ومن المؤنث الى المذكر احياناً، وقي سياقات النص يعود الى مبدأ علية الحمل على المعنى، وقد عقد ابن جني فصلا في كتابه

الخصائص سماه بهذا العنوان قائلا:((اعلم أنّ هذا الشرج غور في العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القران وفصيح الكلام منثوراً ومنظوماً، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث...فمن تذكير المؤنث قوله:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل ابقالها[٥٦]

ذهب بالأرض الى الموضع والمكان. ومنه قول الله عز وجل((**فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي**))[الانعام:٧٨] أي هذا الشخص، أو هذا المرئي ونحوه))[٥٧]، والى هذا التوجيه ذهب المبرد من أنّ ((كل شيء كان مؤنثاً من غير الحيوان فإنما تأنيثه للفظه، ولك أن تذكره على معناه))[٥٨].

ومن صور الحمل على المعنى ما ذكره ابن جني لفظ الصوت، وهو مذكر على معنى الاستغاثة على الرغم من أنّ الصوت مذكر، وهو مصدر بمنزلة الضرب، قال الشاعر:

يا أيّها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت[٥٩]

إذ أراد الاستغاثة، ولكن عد هذا الأمر من قبيل الضرورة الشعرية، وهو من أقبح الضرورات لكون الأمر خروجاً عن أصل الى فرع، وإنّما الجائز ردّ المؤنث الى المذكر لأنّ التذكير هو الأصل[٦٠].

وأفرد الثعالبي لهذه الدلالة فصلاً في كتابه تحت مسمى (فصل حمل اللفظ على المعنى في تذكير المؤنث وتأنيث المذكر)قائلا:((ومن سنن العرب ترك حكم ظاهر اللفظ، وحمله على معناه كما يقولون: ثلاثة أنفس، والنفس مؤنثة، وإنّما حملوه على معنى الانسان، أو معنى الشخص... وقال عز اسمه **(وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا)** [ق:١١] لأنه حمله على معنى المكان))[٦١].

ويرى الدكتور احمد مختار عمر أنّ اللغوين العرب الذين جوّزوا تذكير المؤنث، أو عملوا العكس كانوا أكثر شجاعة، وأقرب الى الواقعية من الذين أولوّا.[٦٢] ووجد العرب الحمل على المعنى نوعاً من التخلص من هذه المشكلة وهي ظاهرة الحمل على المعنى قائلا:((وقد أراد اللغويون العرب التخلص من هذه المشكلة عن طريق ما أسموه (الحمل) بمعنى ان يكتسب اللفظ جنس كلمة ترتبط به عن طريق المعنى))[٦٣]. ومن الشواهد القرآنية لهذه الظاهرة كما ذكرها علماء اللغة، أو التفسير اذ نجد لفظة الجحيم كما يذكر الفراء أنّها مذكر في حين وردت في القرآن الكريم بالتأنيث. قال تعالى:((**وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ**))[

التكوير:١٢] وقال تعالى:((**فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**)) [النازعات:٣٩] إنّ الجحيم في لفظ المؤنث في هذه الآيات قد حمل على معنى النار، أو نووا به النار بعينها(٦٤).

قال تعالى:((**رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**)) [ق:١١] لم يقل ميتة لأنّه حمله على المكان. فيكون التذكير هنا اعتبارا للمعنى، لا اللفظ أي مكانا ميتا. فالأصل في العربية لمّا كانت لفظة(بلدة) مؤنثة، وجاء وصفها بصيغة المذكر فلم يقل ميتة، والأصل أن توافق الصفة الموصوف تذكيرا وتأنيثا، وقد جرى توجيه هذا الاستعمال على أساس المعنى لا اللفظ كما اشير .

قال تعالى:((**فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**)) [الانعام:٧٨] في هذه الآية أيضا لم يكن هناك رأي قاطع، أمّا الأسباب الموجبة التي جاء الخطاب بصيغة التذكير لاسم الإشارة على الرغم من كون المشار اليه مؤنثاً حملها الزجاج على المعنى هذا الشخص، أو المرئي(٦٥). ويرى ابن جني أنّ(الشمس) هو الاسم المؤنث الذي لا يجوز تذكيره(٦٦).

فيما ذهب الزمخشري الى أنّ الأمر يعود بصيغة الخطاب الى العلاقة النحوية اي ظاهرة الاسناد كون المبتدأ والخبر هما حالة واحدة، أو كالحالة الواحدة أي ان وجه التذكير (هذا ربي) والاشارة الى الشمس، وهو أنّه جعل المبتدأ مثل الخبر عبارة عن شيء واحد كقولهم: ما جاءت حاجتك، ومن كانت امك(٦٧). ويذهب الزمخشري الى أنّ صفة الخالق تستوجب التذكير قائلا:((وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث، ألا تراهم قالوا في صفة الله: علّام ولم يقولوا: علّامة وان كان أبلغ، احترازا من علامة التأنيث))(٦٨).

وهناك رأي آخر وهو أنّ الأصل في الشمس التأنيث فيما ذكر القليل من اللهجات العربية التي ترى تذكير الشمس(٦٩). من خلال ما تقدم نجد أنّه لا يوجد رأي صريح وواضح يبين العلة التي من أجلها ورد سياق الآية بهذا الشكل وربما يكون هذا هو ديدن علماء العربية في تفسير وتأويل الآيات التي جاءت في هذا الشكل لا تبنى على رأي قاطع وإنّما هي آراء قابلة للرفض، أو للقبول لدى علماء العربية والتفسير. فيما وجد ابن عصفور طريقاً للخروج من هذه الجدلية قائلا:((وتذكير المؤنث احسن من تأنيث المذكر، لأن التذكير أصل المؤنث فإذا ذكّرت المؤنث الحقته بأصله واذا أنثت المذكر اخرجته عن أصله))(٧٠). أمّا المفسر ابن عادل الدمشقي (٨٨٠هـ) ذهب الى تأويل الآية بدلالة الحمل على المعنى قائلا:((إنّما ذكر اسم الاشارة

مذكراً، والمشار إليه مؤنث لأحد وجوه: إمّا ذهاباً بها مذهب الكواكب وإما ذهاباً بها مذهب الضوء والنور، وأمّا بتأويل الطالع او الشخص)) [٧١] . فيما يرى ابن الانباري الى أن الشمس ليس تأنيثها تأنيثاً حقيقياً، لأنّها من غير الحيوان، وكل ما كان من غير الحيوان فلا حقيقة لتأنيثه، مع بقاء دلالة المعنى على التشبيه والحمل على المعنى[٧٢]. وبهذا قطع ابن الانباري الرأي في هذا المقام من أن كل مؤنث مجازي يجوز فيه التذكير والتأنيث.

قال تعالى:((**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**))[آل عمران:١٠٥] في هذه الآية الكريمة حمل توجيه تذكير الفعل على أحد أمرين، أمّا لكون الفاعل مؤنثاً غير حقيقي، أو لأنّه حمل على المعنى اي بمعنى الدلائل. وأضاف المفسر ابن عادل الدمشقي رأياً آخر يتعلق بسياق التركيب النحوي، أنّه جرى تذكير الفعل وحذفت علامة التأنيث منه إذا كان فعل المؤنث متقدماً[٧٣] .

قال تعالى:((**اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**)) [الشورى:١٧] ذكر الزركشي((لم يقل (قريبة) لأن تأنيثها غير حقيقي، ومجازها الوقت))[٧٤]. ونقل عن الكسائي أنّ معنى لفظة (قريب) في الآية الكريمة جاء حملاً على المعنى، بمعنى: إتيانها قريباً[٧٥] .

قال تعالى:((**جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ**)) [يونس:٢٢]

قال تعالى:((**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ**)) [الانبياء:٨١] ونقل الزركشي عن المبرد أنّ ((كل ما ورد عليك من هذا الباب، فلك أن ترده الى اللفظ تذكيراً، ولك أن ترده الى المعنى تأنيثاً، وهذا من قاعدة أنّ اسم الجنس تأنيثه غير حقيقي، فتارة يلحظ معنى الجنس فيذكر، وتارة معنى الجماعة فيؤنث))[٧٦] .

ومن الأمثلة على مجيء لفظة (الريح) على وجهين دالة على المذكر والمؤنث فالريح من الرياح مؤنثة، كما في هذه الآية، أمّا إذا قصد بها النشر والارج وهما حركتان فأنّها دالة على المذكر، ويجوز أن يكون ذكروه إذا كانت الريح لا علامة فيها للتأنيث موجودة[٧٧]. قال تعالى:((**وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ**))[الذاريات"٤١ــ٤٢] ففي هذه

الآية ذكّر (الريح) اذا جاء الوصف مذكراً، كون الريح هنا دالة على النشر، ولكن حين أمعن في الوصف، جاءت الريح دالة على التأنيث في الآية التي بعدها.

قال تعالى:((**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِي**)) [الاعراف:٥٦] في هذه الآية ذكر الفراء أنّ السبب في تذكير (قريب) يعود الى الدلالة السياقية وهو أنّ المقصود هو دلالة القريب في المعنى، لأنّ المعنى مكان قريب، فكأنّه في تأويلها : هي من مكان قريب. فجعل القريب خلفا للمكان[٧٨]. ويجوز أن يكون على معنى أنّ فضل الله قريب، ويرى ابن الانباري: هو محمول على معنى: إنّ مطر الله قريب. فاذا أردت قرابة النسب ولم ترد قرب المكان ذكّرت مع المذكر، وأنثت مع المؤنث[٧٩]. وذهب المبرد الى توجيه في هذا السياق كأنّما يسن قاعدة عامة للخروج من كثرة التأويل، والتعليل من أنّ ((كل شيء كان مؤنثاً من غير الحيوان، فإنما تأنيثه للفظه، ولك ان تذكّره على معناه))[٨٠]. بل يذهب ابن السراج أبعد من ذلك من أنّ المؤنث الحقيقي الذي له ذكر، فإذا ألبس عليك أمره فرده الى التذكير، فهو الأصل[٨١]. أما الزمخشري فيذكر آراء عدة في الاسباب الموجبة لتذكير لفظ (قريب) على الرغم من مجيء اسم انّ مؤنثاً وهو يجمع الآراء بكل اشكالها لدى العلماء في تخريج هذه الآية قائلا:((وإنما ذكّر: (قريب) على تأويل الرحمة بالرحم، أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف أي، شيء قريب، أو على تشبيه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول...، أو على أنّه بمنزلة المصدر...، أو لأنّ تأنيث الرحمة غير الحقيقي))[٨٢] .

وذكر الزركشي أنّ (قريب) لتذكير المكان، أي مكاناً قريباً. وقيل (قريب) على وزن فعيل وهو مما يستوي فيه المذكر والمؤنث حقيقياً كان، أو غير حقيقي، وقيل من حذف المضاف واقامة المضاف اليه، مع الالتفات الى المحذوف، فكأنّه قال: وأن مكان رحمة الله قريب، ثم حذف المكان وأعطى الرحمة اعرابه وتذكيره، أو من حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه أي أنّ رحمة الله شيء قريب، أو لطيف، أو بر، أو إحسان[٨٣].

ونظير هذه الآية في العدول قوله تعالى((**اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**)) [الشورى:١٧] إذ يمكن أن نعد كل الآراء السابقة منطبقة على هذه الآية في تذكير خبر لعل مضيفاً الزمخشري رأياً آخر، وهو أنّ التذكير يكون حملاً على المعنى، إذ جعل الساعة بمعنى البعث، أو على نية حذف المضاف، وإقامة المضاف اليه مقامه، بمعنى لعل مجيء الساعة قريب.

قال تعالى:((**وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**))[الاعراف:٢٠٣]

قال تعالى:((**هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**))[الجاثية:٢٠]

في هاتين الآيتين ذهب علماء التفسير الى أنّها من باب الحمل على المعنى على تأويل اسم محذوف مذكر وهو القرآن يقول ابو عبيدة(١١٠هـ ـــــــــــ٢٠٩ه):((هذا القرآن ما يتلى عليكم فلذلك ذكّره)) [٨٥].

قال تعالى:((**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**)) [البقرة:٤٨] أمّا في هذه الآية فإنّ التوجيه الصرفي في ظاهرة العدول الجنسي من التأنيث الى التذكير مرده كون المرفوع مؤنثا تأنيثاً مجازياً، وقد فصل بينه وبين فعله بفاصل، قال الزجاج:((وتقول: لا يقبل منها شفاعة، ولا تقبل، لأنّ معنى تأنيث لا ينتج غير حقيقي، فلك في لفظه في الفعل التذكير والتأنيث تقول: قبل منك الشفاعة، وقد قبلت منك الشفاعة))[٨٦]. وعد ابن الانباري التذكير هنا أولى من التأنيث قائلا:((إذا وجد الفصل بين الفعل، والفاعل قوي التذكير . وقد حكى عنهم: حضر القاضي اليوم أمرأه .واذا كان ذلك فيما تأنيثه حقيقي، فلأنّ يكون تأنيثه غير حقيقي أولى و أحرى))[٨٧].

أمّا العدول في الكلمة المفردة المستعملة في نمط اسلوبي فيكون للدلالة على التذكير، أو التأنيث أثر في سياقها، وكثيرا ما يكون هذا الأثر متمثلا في الفعل وما يلحق به من العلامات الدالة، ولا سيما على التأنيث. وكثيرا ما تقع هذه الثنائية الضدية بين التأنيث والتذكير بما يعرف بتداخل اللغات فبعض القبائل تؤنث مفردة ما في حين قبائل أخرى تذكرها، وفي الاستعمال بعد مدّة من الزمن تقع اشكالية في الخطاب بين من يذكر وبين من يؤنث هذه المفردة، وقد حفل القرآن الكريم بمثل هذه الظاهرة ومن الأمثلة على ذلك لفظة السبيل يؤنث ويذكر قد جاء في القرآن في قوله تعالى:((**وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**))[الاعراف:١٤٦] في هذه الآية جاء لفظ السبيل مذكرا. في حين في قوله تعالى((**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**))[يوسف:١٠٨].جاء لفظ السبيل مؤنثاً. وفي قراءة أبي (يتخذوها)[٨٨].

ومن الألفاظ التي جاءت في القرآن الكريم، وجاءت بلفظ المذكر والمؤنث (الفلك) في قوله تعالى:((**فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**))[الشعراء:١١٩] جاء لفظ الفلك بصيغة المذكر، في حين وردت لفظة الفلك دالة على المؤنث في قوله تعالى:((**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا**))[يونس:٢٢][٨٩] . يلاحظ ظاهرة تداخل اللغات واضحة في هذه النصوص القرآنية مما يدل دلالة واضحة على أنّ القرآن الكريم جاء في لغات العرب المختلفة، أو أنّ هذه الظاهرة اللغوية ليست هي نتاج تطور دلالي في المفردة اللغوية في مرحلة من مراحل حياتها في الاستعمال، بل ((أن هذه الظاهرة ليست مقيدة بمرحلة من مراحل اللغة بل أنّها من الاليات الأصلية والمتاحة على الدوام، ومن النواحي الابتكارية التي تؤدي دوراً حيوياً متجدداً لتزويد اللغة بأنماط ومعطيات استخدامية جديدة))[٩٠] .

ومن الألفاظ التي تدخل في هذه الدائرة لفظة(السحاب) إذ وردت مرة بلفظ المذكر ومرة أخرى بلفظ المؤنث ففي قوله تعالى:((**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ**))[الرعد:١٣] ونلاحظ هنا تأنيث السحاب، أما في قوله تعالى:((**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**))[النور:٤٣] ففي هذا النص قد جاء لفظ السحاب مذكراً[٩١].

أمّا في قوله تعالى:((**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ**))[القمر:٢٠] وفي قوله تعالى: ((**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**))[الحاقة:٧] ذكر الفراء(٢٠٧هـ) أنّ استعمال هذه اللفظة بين التذكير والتأنيث يعود الى الاختلاف اللهجي بين نجد والحجاز، وليس لشيء آخر، قائلا:((وكل جمع كان واحدته بالهاء وجمعه بطرح الهاء، فإنّ أهل الحجاز يؤنثونه وربما ذكّروا، والاغلب عليهم التأنيث، وأهل نجد يذكّرون ذلك وربما أنثوا، والاغلب عليهم التذكير))[٩٢] . وقد وجد المبرد رأياً توفيقياً للخروج من هذه الضدية وكأنّما وضع قانوناً عاماً يجمع بين المتناقضات في عودة الشيء للتذكير، أو التأنيث قائلا:((وكل ما لا يعرف أمذكر هو أم مؤنث فحقه أن يكون مذكراً، لأنّ التأنيث لغير هذه الحيوانات إنّما هو تأنيث بعلامة فإذا لم تكن العلامة، فالتذكير الأصل))[٩٣]. ووجه المبرد الرأي في مثل هذا السياق المتضمن نوع الجنس للمفردة في ورودها بالسياق مع الفعل بصيغة المذكر يجوز فيه الوجهان، وهي تحمل وجهين من الدلالة قائلا: ((فأمّا ما يكون للأجناس، فإنّما يقع واحدة من جنس، نحو: قولك (تمرة) و(بسرة)و (شعيرة) و (بقرة) . فحق هذا إذا اخرجت منه الهاء أن يجوز فيه التأنيث والتذكير فتقول: هو التمر وهو البر وهو العنب وكذلك كل ما كان في منهاجه قال الله(**تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ**)[القمر:٢٠] فهذا لمن جعل هذه الاشياء اجناساً، ومن جعلها

محمولة على معنى الجماعة أنث فقال: هي التمر، وهي الشعير، وكذلك ما كان مثلها قال الله عز وجل (**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**)[الحاقة:٧]))[٩٤].

في حين يرى الدكتور صبحي الصالح أنّه إذا قصد باللفظ اسم الجنس فإنّه على التذكير، أمّا إذا أراد به الجماعة، فإنّه يجمع على التأنيث، وبكلتا الصيغتين نطقت العرب[٩٥].

ومن الأمثلة القرآنية أيضا على الاستعمال اللهجي بين من يذكر اللفظ وبين من يستعمله مؤنثاً لفظ (الطريق) فأهل الحجاز يؤنثه ويذكّره أهل نجد والتذكير فيه أكثر من التأنيث، وأجود هذا ما ذكره الفراء[٩٦] وبذلك نزل الفرآن الكريم قال تعالى:((**قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ**))[الاحقاف:٣٠] هنا جاء لفظ الطريق مذكرا، وجاء في موضع آخر مذكراً أيضا في قوله تعالى:((**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى**))[طه:٧٧] لم يكن هناك نص واحد جاء بلفظ المؤنث[٩٧].

ومن الألفاظ التي تذكر وتؤنث لفظة(الانعام) فيقال: هو الأنعام، وهي الانعام[٩٨]. ومن الأمثلة ما ورد في قوله تعالى:((**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ**)) [النحل:٦٦] في هذه الآية جاء لفظ الانعام بصيغة المذكر. ذكر الزركشي أنّ توجيه هذه الآية بلفظ المذكر، أي من بطون ما ذكرنا على رأي الكسائي، في حين ذهب الفراء الى المعنى، يعني: معنى النعم، وقيل: الأنعام تذكر وتؤنث[٩٩]. فيما ذهب أبو حيان الأندلسي مذهباً آخر من أنّ المفرد إذا صح وقوعه مقام الجمع الدال على الجنس يجوز تذكيره قائلا:((وأعاد الضمير مذكراً مراعاة للجنس، لأنّه، إذا صح وقوع المفرد الدال على الجنس مقام جمعه، جاز عوده عليه مذكرا، كقولهم: هو أحسن الفتيان وأنبله))[١٠٠]. كما في قوله تعالى:((**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**)) [المؤمنون:٢١] اذ جاء لفظ الانعام دالاً على المؤنث.

قال تعالى:((**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**)) [الشعراء:٤] إنّ لفظة الأعناق تقع في دائرة التداخل اللغوي فالعنق مؤنثة عند أهل الحجاز وغيرهم يذكرها[١٠١] . في حين وجه الزمخشري في هذه الآية الكريمة العدول الجنسي في لغة الخطاب من المؤنث الى المذكر على تقدير محذوف، معتمدا على الجانب التأويلي في الدلالة على نقل الخطاب من صيغة المؤنث الى المذكر قائلا :((

فان قلت: كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الاعناق، قلت: أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين، فأقحمت الاعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله، كقولهم: ذهبت أهل اليمامة، فكأنّ الأهل غير مذكور))[١٠٢]. وهذا يدلل دلالة واضحة مساهمة نتاج التداخل اللغوي، أو اللهجي الذي شاع في الجزيرة العربية، في توجيه القواعد النحوية العربية، وما القرآن الكريم إلا خطاب موجه الى الإنسانية جمعاء، ومنها هذه القبائل العربية بكل لهجاتها ولغاتها.

ولو استعرضنا كل الآيات القرآنية فأنها لا تخرج عن هذا الاطار، من أنّها تقع في دائرة أحد هذه الآراء في رد الأسباب الموجبة الى تذكير الأفعال مع الألفاظ التي قد تتراءى الى القارئ لأول وهلة أنّها جاءت مخالفة للسياق اللغوي، ولكن حاشا القرآن الكريم، وهو معجزة الله الخالدة الى أن تقوم الساعة من أنّ يصيبه الخطأ، أو التحريف. بل إنّ هذه الصور اللغوية ما زادت القرآن الكريم إلا اعجازاً وبلاغة ورفعة. بل على العكس من ذلك أتاحت مساحة من حرية الفكر في التأمل، والتدبر والتفكير، وما اختلاف بيان مجيء القرآن الكريم بهذه الخصوصية ما هو الا دليل على الغنى في الاسلوب حتى احتارت به العقول، وصار العدول شكلاً من أشكال البلاغة العربية نادراً ما ألفه العرب في اشعارهم وخطبهم . وخرج البحث بالنتائج الآتية :

اولا: لقانون الحمل على المعنى، الأثر الكبير في الوصول الى المعاني التي جاءت في آيات القرآن الكريم، وهي تحمل بين طياتها وثناياها مفهومين بين التذكير والتأنيث.

ثانيا: إنّ للهجات العربية دوراً كبيراً، في مجيء بعض الألفاظ دالة على المذكر، في حين يظنها بعضهم أنّها من الالفاظ المؤنثة، فاختلاف اللهجات شكل عاملاً فاعلاً، ورؤية إبداعية أضافت بعداً جمالياً وبلاغياً وتركت مساحة من حرية الفكر في الاستنباط ، والتأويل، ولم تجعل القرآن الكريم مجرد ألفاظ خرجت من حيز المعجم الى حيز القرآن. بل شكلت ثراء لغويا وانشأت صوراً بلاغية إبداعية أعجزت العرب أنفسهم ان يأتوا بمثلها.

ثالثا: ان المؤنث المجازي يجوز فيه التذكير والتأنيث، بل ان كل شيء كان مؤنثاً من غير الحيوان إنّما تأنيثه للفظه ويجوز تذكيره على معناه، وهو الغالب في القرآن الكريم، أي أنّ العدول الجنسي في القرآن الكريم من التأنيث الى التذكير أكثر استعمالاً. وهذا يقود الى ترسيخ أنّ الأصل في العربية هو التذكير، وأنّ التأنيث فرع

عليه، والعدول من التأنيث الى التذكير يعني رد الفرع الى الأصل، مما يعني أنّ العربية تميل الى تغليب المذكر على المؤنث في الاستعمال اللغوي .

رابعا : إنّ صور الخطاب القرآني بظاهرة العدول الجنسي تمثل مظهراً من مظاهر الاعجاز اللغوي جاء به القرآن الكريم، وصورة من صور البلاغة العربية قلما ألفوها في أشعارهم وخطبهم، وقف أمامها علماء العربية وعلماء التفسير يتأملونها للوصول الى بعض هذا الاعجاز ،وشكلت هذه الظاهرة سعة الامكانيات التي تتيحها اللغة الى مستعمليها في محاكاة الاسلوب القرآني في الشعر، والخطابة .وفي حقيقة الأمر أنّ القرآن الكريم جاء بأساليب لغوية وبلاغية عجز العرب عن الاتيان بمثلها، وهم أهل فصاحة، وبلاغة وشعر، وجاء بأساليب جديدة من الخلط بين المذكر والمؤنث، والتعاقب اللغوي فيها، فأعاد انتاجها ما شكّل دعامة أساسية في بناء منظومة القواعد العربية التي تنطوي تحتها أسرار من الاعجاز، وصور من الفصاحة والبلاغة التي تظهر في المقدس.

خامسا: في ضوء ما تمت دراسته من النصوص القرآنية لظاهرة العدول الجنسي تبين أنّ القواعد الصرفية والنحوية تشكل السبيل الأول للوصول الى ابواب التفسير التي حصل فيها عدول جنسي في لغة الخطاب، ومن ثم الانتقال الى الجوانب التأويلية والدلالية في تحديد ماهية المقصود من هذا العدول .

سادسا: شكلت الآيات القرآنية التي اعتمدت على المؤنث المجازي في ظاهرة العدول كما كبيراً، مقارنة مع آيات التداخل اللغوي واللهجي.

سابعا: يجوز تذكير الفعل وتأنيثه عندما يكون الفاعل مؤنثًا تأنيثاً مجازياً، والأولى التذكير لأنّ التأنيث لم يكن حقيقياً، وكذلك يجوز الأمر نفسه إذا فصل بين الفعل ومرفوعه بفاصل .

الهوامش

١. المذكر والمؤنث ٥١/١
٢. ينظر: اشعر أشعار الهذليين للسكري١٣٤٤/٣
٣. لسان العرب ٤٣٤/١١ ـــ ٤٣٥
٤. اللباب في علل ابناء والاعراب ٥٠٢/١
٥. معجم التعريفات للجرجاني مادة(عدل):٥٨
٦. المثل السائر ١٨٠/٢

٧. اسرار البلاغة ١٤٧/١

٨. البيت منسوب الى الشاعر عامر بن جوين الطائي الكتاب ٤٦/٢

٩. الخصائص٤١٣/٢

١٠.ديوان حاتم الطائي :٦٨. بلفظ :وإنّك مهم...

١١.هذا البيت لرجل من بني كلاب اسمه النواح الكلابي الكتاب ٥٣٥/٣

١٢.درة الغواص في أوهام الخواص:١٥٧

١٣.الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها :١٩٥

١٤.ينظر نفسه:٢٦

١٥.المذكر والمؤنث٩٠/١

١٦.ينظر المذكر والمؤنث ابن التستري الكاتب :٤٧

١٧.البيان في روائع القران ٤٧/٢

١٨.ينظر الأصول:١٥٩ــ ١٦٠

١٩.نفسه:١٧٩

٢٠.الكشاف١١٨/١

٢١.ينظر اسلوب الالتفات في البلاغة العربية:١١

٢٢.اللغة واختلاف الجنس:٦٠

٢٣.نفسه:٧٨

٢٤.نفسه:٧٩

٢٥.ينظر آمالي الزجاجي ، أبو القاسم الزجاجي:٢٣٨ ـــ ٢٤٩

٢٦.ظاهرة التغليب في العربية د. إسماعيل أحمد عمايرة:١٨

٢٧.ينظر المذكر والمؤنث للفراء:٧٧

٢٨.الكتاب٢٢/١

٢٩.المقتضب١٨٢/٢

٣٠.ضرائر الشعر، ابن عصفور:٢٧٩

٣١.ينظر اللباب في علل النحو والاعراب٥٠٢/١

٣٢.المذكر والمؤنث:٣٦

٣٣.اللغة والجنس، د. عيسى برهومة :٣٢

٣٤.ظاهرة التغليب في العربية:١٣

٣٥.ــ اللغة ،ج . فندريس :٢٠٢

٣٦.ينظر : مقدمة كتاب البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، لأبي البركات بن الانباري:٣٨،مقدمة كتاب المذكر والمؤنث، للتستري:٢٦

٣٧. شرح المفصل٥/٩٣ـــــــــ ٩٤

٣٨.المؤنث المجازي ومشكلات التقعيد:٣٦ــ٣٧

٣٩.ينظر نفسه:٤٤

٤٠.علم اللغة مقدمة للقارئ العربي :٢٣٦

٤١.المذكر والمؤنث:٥٤

٤٢.مقدمة كتاب المذكر والمؤنث لأبن فارس:٢٩

٤٣.الكشاف١/٥٣٨

٤٤.البحر المحيط في التفسير أبو حيان الاندلسي٢/٥٣٨

٤٥.معاني القران للفراء١/٣٥٦

٤٦.ينظر شرح المفصل ٥/٩٣ ـــ ٩٤

٤٧.اللباب في علوم الكتاب٩/٥١٧

٤٨.درة التنزيل وغرة التاويل:٧٦٧

٤٩. المقتضب٢/١٤٦

٥٠.نفسه٤/٥٩

٥١.المذكر والمؤنث:٩٠

٥٢.البحر المحيط٢/٤١

٥٣.ينظر معاني القرآن واعرابه للزجاج٢/٢٢٩

٥٤.نفسه١/٢٨١

٥٥.نفسه١/١٢٩

٥٦.الشاعر عامر بن جوين الطائي ينظر:الكتاب٢/٤٦

٥٧.الخصائص٢/٤١٣ ـــ٤١٤

٥٨. المذكر والمؤنث للمبرد:١٠٧

٥٩.رويشد بن كثير الطائي، ذكر في لسان العرب مادة(صوت)٢/٦٧

٦٠.ينظر: سر صناعة الاعراب ابن جني ١/٢٣ ـــــــ ٢٤

٦١.ــ فقه اللغة واسرار العربية :٢١٦ــ٢١٧

٦٢.ينظر :اللغة واختلاف الجنس:٧٨

٦٣.نفسه:٧٧

٦٤.ينظر المذكر والمؤنث للفراء:٨٣ـــــــــ٨٤

٦٥.ينظر: اعراب القران٢/٦١٨

٦٦.ينظر المذكر والمؤنث، لأبن جني:٤٥ ـــ٤٦

٦٧.ينظر الكشاف٢/٤٠

٦٨.نفسه٢/٤٠

٦٩. المذكر والمؤنث ابن الانباري ١ /١٤٥

٧٠.ضرائر الشعر :٢٧٩

٧١.الباب في علوم الكتاب٨/٢٤٩

٧٢.ينظر: المذكر والمؤنث ابن الانباري ١/١٤٦

٧٣.اللباب في علوم الكتاب٥/٤٥٢

٧٤.البرهان في علوم القران ٣ /٣٦١

٧٥.ينظر:نفسه٣/٣٦١

٧٦.نفسه٣/٣٦٨

٧٧.ينظر: المذكر والمؤنث ابن الانباري ١/٢٥٨

٧٨.ينظر معاني القران ١ / ٣٨٠ ــ٣٨١

٧٩.ينظر: المذكر والمؤنث ابن الأنباري ٢ /٢٧

٨٠. المذكر والمؤنث المبرد :١٠٧

٨١. الأصول في النحو ٢/١١٥

٨٢.الكشاف ٢/٤٥١

٨٣.ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/٣٦١

٨٤.ينظر: الكشاف ٥/٤٠٢

٨٥.ـــ مجاز القرآن ١ /٢٣٧

٨٦.ـــ معاني القرآن واعرابه ١/١٢٩

٨٧. البيان في غريب اعراب القرآن ١/٨١

٨٨.ينظر: المذكر والمؤنث للفراء: ٧٧ ـــــــ٧٨

٨٩.ينظر: نفسه:٨٨

٩٠.المؤنث المجازي ومشكلات القعيد:٣٤

٩١.ينظر: دراسات في فقه اللغة: ٩

٩٢.المذكر والمؤنث:٩١

٩٣. المذكر والمؤنث:١٠٨

٩٤. نفسه:٨٦

٩٥. ينظر: دراسات في فقه اللغة:٩٠

٩٦. ينظر: المذكر والمؤنث للفراء:٨٧

٩٧. المذكر والمؤنث لأبن الانباري١/٤٥٧

٩٨. ينظر: نفسه١/٤٦٧ ـــــ٤٦٨

٩٩. ينظر: البرهان في علوم القرآن٣/٣٦١

١٠٠. البحر المحيط٦/٥٥٤

١٠١. ينظر: المذكر والمؤنث للفراء:٦٤

١٠٢. الكشاف٣/٣٠٥

المصادر

القرآن الكريم

١) ـــ اسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قراه وعلق عليه محمود محمد شاكر ابو فهر، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة د ـــ ت .

٢) ـــأسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤١٨هـ ـــ ١٩٩٨م.

٣) الأصول، د. تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣ م.

٤) الأصول في النحو، لأبي محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، تحقيق د. عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت ـــ لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٢٠هـ ـــ ١٩٩٩م.

٥) ـــأمالي الزجاجي، لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق، عبدالسلام هارون، مصر المؤسسة الحديثة، الطبعة الأولى.

٦) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الاندلسي، بعناية صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت ١٩٩٢م.

٧) البرهان في علوم القران، للأمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ـــ ١٩٨٤ م.

٨) البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، لأبي البركات بن الانباري، حققه وقدم له د. رمضان عبدالتواب ، الجمهورية العربية المتحدة، مطبعة دار الكتب ١٩٧٠م .

٩) البيان في غريب اعراب القران ابو البركات الانباري، تحقيق د. طه عبدالحميد طه، ومراجعة مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ ـــ ١٩٨٠م.

١٠) ـــالبيان في روائع القران، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ ـــــ٢٠٠٠م .

١١) الخصائص، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ١٩٩٠م .

١٢)دراسات في فقه اللغة د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين لبنان الطبعة التاسعة، دـــ ت
١٣)ـــــ درة التنزيل وغرة التأويل، لأبي عبدالله الاصبهاني المعروف بالخطيب الاسكافي، دراسة وتحقيق د. محمد مصطفى ايدين، جامعة ام القرى معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الاولى ١٤٢٢هـــ ـــ٢٠٠١م
١٤)درة الغواص الحريري في اوهام الخواص لأبي محمد القاسم بن علي بن محمد البصري الحريري، حققه وعلق عليه بشار بكور، دار الثقافة والتراث، دمشق سورية، الطبعة الاولى، ٢٠٠٢ م.
١٥)ديوان حاتم الطائي، دار صادر ، بيروت، لبنان، د ـــــ ت .
١٦)سر صناعة الأعراب، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني، قدم له د . فتحي عبدالرحمن حجازي، وحققه وعلق عليه احمد فريد احمد، المكتبة التوفيقية، مصر د ـــ ت .
١٧)شرح المفصل، موفق الدين ابن يعيش ، المطبعة المنيرية، مصر القاهرة، د ـــ ت.
١٨)الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تأليف ابي الحسن احمد بن فارس بن زكريا، علق عليه ووضع حواشيه احمد حسن بسج، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الاولى ١٤١٨ هـــ ـــ ١٩٩٨ م
١٩)ضرائر الشعر، ابن عصفور الاشبيلي، تحقيق السيد ابراهيم محمد ، دار الاندلس للطباعة والنشر، الطبعة الاولى ١٩٨٠م.
٢٠) ظاهرة التغليب في العربية، د. عبدالفتاح الحموز، جامعة مؤته، الطبعة الاولى، ١٩٩٣.
٢١)ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية، د. إسماعيل احمد عمايرة ، دار حنين للنشر والتوزيع، عمان الاردن، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـــ ـــ ١٩٩٣م.
٢٢)علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعران ،دار النهضة العربية، بيروت لبنان، د ـــــ ت.
٢٣) فقه اللغة واسرار العربية، لأبي منصور الثعالبي، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان د ـــ ت
٢٤)ـــــالكتاب، لأبي بشر عمرو بن قنبر المعروف بسيبويه، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥ هـــ ـــ ٢٠٠٤ م
٢٥)كتاب شعر أشعار الهذليين، صنعه أبي سعيد الحسن السكري، حققه عبدالستار أحمد فراج، راجعه محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة د ـــــ ت .
٢٦)الكشاف، تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق و تعليق ودراسة الشيخ عادل احمد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان الرياض، السعودية الطبعة الاولى، ١٤١٨هـــ ـــ ١٩٩٨ م.
٢٧)ـــــاللباب في علوم الكتاب، تأليف أبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه برسالته الجامعية الدكتور محمد سعد رمضان حسن،

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

والدكتور محمد المتولي الدسوقي، منشورات دار الكتب الجامعية، بيروت ـــ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـــ ١٩٩٨م.

٢٨) اللباب في علل البناء والاعراب، أبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، تحقيق، غازي مختار طليمات، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، الطبعة الاولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ .

٢٩) لسان العرب، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور، دار لسان العرب بيروت، د ـــت

٣٠) اللغة، ج. فندريس، تعريب عبدالحميد الدواخلي، محمد القصاص، الناشر مكتبة الانجلو المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر . د ـــ ت.

٣١) اللغة والجنس، د. عيسى برهومة، دار الشروق، عمان، الاردن، الطبعة الاولى، ٢٠٠٢ م.

٣٢) ـــاللغة واختلاف الجنسيين، د. احمد مختار عمر، الناشر عالم الكتب والنشر والتوزيع والطباعة، مصر، الطبعة الاولى، ١٤١٦هـ ـ١٩٩٦م.

٣٣) مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي، علق عليه د. محمد فؤاد سركين، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، د ـــت.

٣٤) المؤنث المجازي ومشكلات التقعيد، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، د. عيسى بن عودة الشريوفي، الرسالة ١٥٦ الحولية الحادية والعشرون ١٤٢١ـ١٤٢٤ مجلة النشر العلمي جامعة الكويت ٢٠٠٠م ـ ٢٠٠١ م.

٣٥) المثل السائر، تأليف ضياء الدين ابن الاثير، قدمه وحققه وعلق عليه د. احمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر الفجالة، القاهرة .

٣٦) المذكر والمؤنث، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق وتقديم د. طارق نجم عبدالله، الناشر دار البيان العربي جدة السعودية، الطبعة الاولى ١٤٠٥عـ ـ ١٩٨٥م.

٣٧) المذكر والمؤنث، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، حققه وقدم له وعلق عليه د. رمضان عبدالتواب، وصلاح الدين الهادي، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب ١٩٧٠م

٣٨) المذكر والمؤنث، تأليف أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، حققه وقدم له وعلق عليه د. رمضان عبدالتواب، مكتبة دار الفكر القاهرة د ـ ت.

٣٩) ـــالمذكر والمؤنث، لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني، تحقيق، د. حاتم صالح الضامن، دار الفكر المعاصر، بيروت ـــ لبنان دار الفكر سوريه الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ١٩٩٧م.

٤٠) المذكر والمؤنث، تأليف أبي بكر بن الانباري، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، القاهرة، ١٤٠١هـ ـــــــ ١٩٨١م.

٤١) المذكر والمؤنث، ابن التستري الكاتب، تحقيق د. احمد عبدالمجيد هريدي مطبعة الخانجي ـ القاهرة، الطبعة الاولى، ١٤٠٣ هـــ ـــ ١٩٨٣م .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

٤٢) المذكر والمؤنث، لأبي الحسن أحمد بن فارس، حققه وقدم لع وعلق عليه د. رمضان عبدالتواب القاهرة الطبعة الاولى ١٩٩٦ م.
٤٣) ـــــ معاني القرآن واعرابه، لأبي ابراهيم السري للزجاج، شرح وتحقيق د. عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت ـــــ لبنان، الطبعة الاولى ١٤٠٨هـ ـــ ١٩٨٨م.

٤٤) معجم التعريفات للجرجاني، للعلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق محمد صديق المنشاوي دار الفضيلة، القاهرة. د ـــــ ت .
٤٥) المقتضب، المبرد لأبي العباس محمد بن يريد المبرد، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، عالم الكتب، د ـــــ ت.